الجزء السادس

لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (١٤٨) إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (١٤٩)

بسم الله الرحمن الرحيم

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه كثيراً من عيوب المنافقين ومفاسدهم لإقامة الحجة عليهم ، وحذر المؤمنين من مثل أعمالهم وأخلاقهم كما قال : « وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ».

بين هنا حكم الجهر بالسوء من القول و إبداء الخير و إخفائه حتى لا يستدل المؤمنون بذكر عيوب المنافقين والكافرين فى القرآن على استحباب الجهر بالسوء من القول أو مشروعيته إذا كان حقا على الإطلاق فيفشو ذلك، وفى هذا من الضرر ما سنذكره .

الإيضاح

(لايحب الله الجهر بالسوء من القول) حب الله لشيء هو الرضا به والإثابة عليه، والجهر يقابل السر والاخفاء، والسوء من القول ما يسوء من يقال فيه كذكر عيوبه ومساويه التى تؤذى كرامته .

والمعنى — إن الله لايحب من عباده أن يجهروا فيما بينهم بذكر العيوب والسيئات لما فى ذلك من المفاسد الكثيرة التى أهمها :

(١) أنه مجلبة للعداوة والبغضاء بين من يجهر بالسوء ومن ينسب إليه هذا السوء، وقد يصل الأمر إلى هضم الحقوق وسفك الدماء .

(٢) أنه يؤثر فى نفوس السامعين تأثيراً ضاراً بهم، فقد جرت العادة بأن الناس يقتدى بعضهم ببعض، فمن رأى إنساناً يسب آخر لضغائن بينه وبينه، أو لكراهته إياه قلده فى ذلك ولا سيما إذا كان من الأحداث الذين يغلب عليهم التقليد أو من طبقة دون طبقته، إذ عامة الناس يقلدون خواصهم، فإذا ظهرت المنكرات فى الخاصة لاتلبث أن تصل إلى العامة وتفشو بينهم . ومن تميل نفسه إلى منكر أو فاحشة يجترئ على ارتكابهما إذا علم أن له سلفا وقدوة فيهما، فسماع السوء كعمل السوء فذاك يؤثر فى نفس السامع وهذا يؤثر فى نفس الرائى والناظر، وأقل هذه الأضرار أنه يضعف فى النفس استقباحه واستبشاعه خصوصا إذا تكرر السماع أو النظر .

وكثير من الناس يجهل مبلغ تأثير الكلام فى القلوب فلا ينزهون ألسنتهم عن السوء من القول ولا أسماعهم عن الإصغاء إليه .

والخلاصة — إن الله لايحب الجهر بالسوء من القول ولا الإسرار به إذ هو قد نهى عن النجوى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ولكنه خص الجهر هنا بالذكر لمناسبة بيان مفاسد الكفار والمنافقين فى هذا السياق .

والجهر بالسوء أشد ضرارا من الإسرار به لأن ضرره وفساده يفشو فى جمهرة الناس و يعم سائر الطبقات .

(إلا من ظلم) أى لكن من ظلمه ظالم فجهر بالشكوى من ظلمه شارحا ظلامته لحاكم أو غيره ممن ترجى نجدته ومساعدته على إزالة هذا الظلم فلا حرج عليه فى ذلك ، فإن الله لايحب لعباده أن يسكتوا على الظلم ولا أن يخضعوا للضيم ، بل يحب لهم العزة والإباء .

فهاهنا تعارضت مفسدتان مفسدة الجهر بالشكوى من الظلم بقول السوء ومفسدة السكوت على الظلم وهو مدعاة فشوه والتمادى فيه ، وذاك مما يؤدى إلى هلاك الأمم وخراب العمران ، وكانت ثانيتهما أخف الضررين فأجيزت للضرورة التى تقدر بقدرها ، وإذا فلا يجوز للمظلوم أن يتمادى فى الجهر بالسوء بما لادخل له فى دفع الظلم وفى الحديث « إن لصاحب الحق مقالا » رواه الإمام أحمد .

(وكان الله سميعا عليما) فلا يفوته قول من أقوال من يجهر بالسوء ولايعزب عن علمه البواعث التى أدت إليه ، إذ لايخفى عليه شىء من أقوال العباد ولا من أفعالهم ونياتهم فيها ، فمن جهر بالسوء الذى لايحبه الله لعباده لضرره ومفسدته لظلم وقع عليه فالله لايؤاخذه ، بل ربما أثابه على ذلك لإراحة الناس من شر فاعله فإن الظالم إن لم يؤاخذ على ظلمه يزدد فيه ضراوة و إصرارا .

(إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا) أى إن فاعلى الخير سرا وجهرا والعافين عمن يسىء إليهم يجزيهم ربهم من جنس ماعملوا فيعفو عن سيئاتهم ويجزل مثوبتهم ، والله من شأنه العفو وهو القدير الذى لايعجزه الثواب الكثير على العمل القليل .

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا

بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٥٢)

المعنى الجملى

بين الله تعالى أن للايمان ركنين يبنى عليهما ماعداهما ، ولايقبل الإيمان بدونهما وهما الإيمان بالله وبجميع رسله بدون تفرقة بين رسول وآخر .

الإيضاح

(إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا) ليس المراد أنهم يصرحون بالكفر بل هو ماتقتضيه آراؤهم ومذاهبهم ، وقوله : نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، بيان لتفريقهم بين الله ورسله .

والخلاصة — إن الكافرين بالرسل فريقان فريق لايؤمن بأحد منهم لإنكارهم النبوات وزعمهم أن ما أتى به الأنبياء من الهدى والشرائع هو من عند أنفسهم لامن عند الله ، وأكثر الملحدين فى هذا العصر من ذلك الفريق . وفريق آخر يؤمن ببعض الرسل دون بعض كقول اليهود نؤمن بموسى ونكفر بعيسى ومحمد فهما ليسا برسولين ، وقول النصارى نؤمن بموسى وعيسى ونكفر بمحمد والفريقان كافرون مستحقون للعذاب ولاعبرة بما يدعونه إيمانا .

(وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا) أى وأعددنا لكل كافر سواء أكان منهم

أم من غيرهم عذابا فيه ذل و إهانة لهم جزاء كفرهم الذى ظنوا فيه العزة والكرامة .

ذاك أن من يؤمن بالله ولا يؤمن بوحيه إلى رسله لايكون إيمانه صحيحا ولا يهتدى إلى مايجب له من الشكر ولا يعرف كيف يعبده على الوجه الذى يرضيه ، ومن ثم نرى أمثال هؤلاء ماديين لاتهمهم إلا شهواتهم كما أن من يؤمنون ببعض الرسل و يكفرون ببعض كأهل الكتاب لايعتدّ بقولهم لأن الإيمان بالرسالة على الوجه الحق إنما يكون بفهمها وفهم صفات الرسل ووظائفهم وتأثير هدايتهم .

ومن فهم هذا حق الفهم علم أن صفات الرسل قد ظهرت بأكملها فى محمد صلى الله عليه وسلم فهو قد جاء بكتاب حوى مالم يحوه كتاب آخر مع أنه نشأ بين قوم أميين ، ونقل كتابه وأصول دينه بالتواتر القطعى والأسانيد المتصلة دون غيره من الكتب .

وبعد أن ذكر حال الفريقين السالفى الذكر ذكر حال فريق ثالث فقال :

(والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم) أى والذين آمنوا بالله وجميع الرسل وعملوا بشريعة آخرهم علما منهم بأن جميعهم مرسل من عند الله ، وما مثلهم إلا مثل ولاة يرسلهم السلطان إلى البلاد ومثل الكتب التى جاءوا بها مثل القوانين التى يصدر السلطان مراسيم للعمل بها فكل وال منهم إنما ينفذ أوامر السلطان وكل قانون يعمل به لأنه منه وكل قانون جديد ينسخ ماقبله و يمنع العمل به . وأولئك يؤتيهم الله أجورهم على حسب حالهم فى العمل ، لأنهم وقد صح إيمانهم بالله ورسله يهديهم ربهم إلى العمل الصالح إذ هو الأثر اللازم لذلك الإيمان الصحيح .

ولم يقل فى هؤلاء إنهم هم المؤمنون حقا كما قال فى أولئك إنهم هم الكافرون حقا لئلا يدور بخلد أحد أن كمال الإيمان يوجد بدون العمل الصالح فيغتر بذلك و يترك العمل النافع وهذا مما لايتلاءم مع نصوص الدين ، فلقد وصف الله المؤمنين حقا بقوله :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ »

(وكان الله غفورا رحيما) أى وكان الله غفورا لهفوات من صح إيمانه ولم يشرك به أحدا ، ولم يفرق بين أحد من رسله ، رحيما به يعامله بالإحسان ويضاعف حسناته ويزيد على ماوعد تفضلا منه ورحمة .

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُبِيناً (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً (١٥٤) فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً (١٥٧)

بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩)

المعنى الجملى

بعد أن بين الله تعالى فى سابق الآيات حال الذين يكفرون بالله ورسله و يفرقون بين الله ورسله فيقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض وهم أهل الكتاب ، بين فى هذه الآيات بعض حوادث لليهود تدل على شديد تعنتهم وجهلهم بحقيقة الدين .

الإيضاح

(يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء) فقد قالوا له إن موسى عليه السلام جاء بالألواح من عند الله فائتنا بألواح من عنده تكون بخط سماوى يشهد أنك رسول الله إلينا .

أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : إن اليهود قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم لن نبايعك على ماتدعونا إليه حتى تأتينا بكتاب من عند الله يكون فيه (من الله تعالى إلى فلان إنك رسول الله و إلى فلان إنك رسول الله ، وهكذا ذكروا أسماء معينة من أحبارهم وما مقصدهم من ذلك إلا التعنت والتحكم لا طلب الحجة لأجل الاقتناع) وقال الحسن لو سألوه ذلك استرشادا لأعطاهم ما سألوا .

(فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة) جهرة أى عيانا ننظر إليه ونشاهده أى لاتعجب أيها الرسول من سؤالهم وتستنكره فقد سألوا موسى أكبر من ذلك وكل من السؤالين يدل على جهل أو عناد .

ذلك أن سؤال الرؤية جهرة دليل على الجهل بالله إذ هم ظنوا أن الله جسم محدود يدركه الأبصار ؛ وأما سؤال إنزال الكتاب فهو دليل إما على العناد لأنهم اقترحوا

ما اقترحوا تعجيزا ومراوغة و إما على الجهل بمعنى النبوة والرسالة مع ما ظهر فيهم من أنبياء ، إذ هم لايميزون بين الآيات الصحيحة التى يؤيد الله بها رسله و بين الشعوذة وحيل السحرة المخالفة للعادة ، وكتبهم قد بينت لهم أنه يقوم فيهم أنبياء كذبة وأن النبى يعرف بدعوته إلى التوحيد والحق لابمجرد أعجوبة يعملها كما نصت على ذلك التوراة فى سفر تثنية الاشتراع وغيره .

وأيا ما كان فلا فائدة فى إجابتهم إلى ما طلبوا كما قال تعالى : « وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » .

ونسب سؤال موسى إليهم والذين سألوا إنما هم سلفهم لأن الخلف والسلف سواسية فى الأخلاق والصفات ، فالأبناء يرثون الآباء ولا سيما اليهود الذين يأبون مصاهرة الغرباء ، ولأن سنة القرآن قد جرت على أن الأمة تعد كالشخص الواحد فى اتباع خلفها لسلفها فينسب إلى المتأخر مافعله المتقدم كما سبق هذا فى سورة البقرة فى مخاطبة اليهود وغيرهم .

(فأخذتهم الصاعقة بظلمهم) الصواعق نيران جوية تنشأ من اتحاد الكهرباء الموجبة بالكهرباء السالبة ، وقوله بظلمهم أى بسبب ظلمهم أى إن الله تعالى عاقبهم على جهلهم بإنزال الصاعقة عليهم عذابا لهم ، إذ شبهوا الخالق بالمخلوق ورفعوا أنفسهم فوق أقدارها كما قال تعالى « وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ » .

(ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك) تقدم هذا فى سورة البقرة أى و بعد أن جاءتهم المعجزات على يد موسى عليه السلام من قلب العصا حية واليد بيضاء وفلق البحر وغيرها ، اتخذوا العجل إلها وعبدوه ، فعفونا عن ذلك الذنب حين تابوا ، فتوبوا أنتم مثلهم حتى نعفو عنكم مثلهم .

(وآتينا موسى سلطانا مبينا) السلطان هنا بمعنى السلطة أى إننا أعطيناه سلطة ظاهرة فأخضعناهم له على تمردهم وعنادهم حتى فى قتل أنفسهم ، وفى هذا بشارة للنبى

صلى الله عليه وسلم بأن هؤلاء الكفار وإن كانوا يعاندون فإنك ستتغلب عليهم آخرا وتقهرهم .

ثم حكى الله عنهم سائر جهالاتهم وإصرارهم على أباطيلهم وقد تقدم بعضها فى سورة البقرة فقال :

(ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم) الطور الجبل المعروف رفع فوقهم كأنه ظلة وقد كانوا فى واديه ، وقوله بميثاقهم أى بسبب ميثاقهم أن يأخذوا ما أنزل إليهم بقوة ويعملوا به مخلصين ثم امتنعوا من العمل بما جاء به فرفع عليهم الجبل فخافوا وقبلوا العمل به .

(وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا) الباب هو باب المدينة وهى بيت المقدس وقيل أريحا ، وقوله سجدا أى خاضعى الرءوس مائلى الأعناق ذلة وانكسارا لعظمته أى وقلنا لهم على لسان يوشع عليه السلام ادخلوا باب هذه القرية بذلة وانكسار .

(وقلنا لهم لاتعدوا فى السبت) والاعتداء تجاوز الحد ، والاعتداء فى السبت هواصطياد الحيتان فيه أى وقلنا لهم على لسان داود عليه السلام لاتتجاوزوا حدود الله فيه بالعمل الدنيوى ، وقد خالفوا فى السبت وفى دخول الباب .

(وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) الميثاق الغليظ العهد المؤكد أى وأخذنا منهم عهدا مؤكدا ليأخذن التوراة بقوة وليقيمن حدود الله ولا يعتدونها ، ويتبع ذلك البشارة بعيسى ومحمد عليهما السلام وهو موجود إلى الآن فى الفصل التاسع والعشرين وما بعده من سفر تثنية الاشتراع وهو آخر التوراة التى بأيديهم .

(فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق) أى فبسبب نقض أهل الكتاب للميثاق الذى واثقهم الله به فأحلوا ماحرمه وحرموا ما أحله وكفرهم بآيات الله وحججه الدالة على صدق أنبيائه وقتل الأنبياء الذين أرسلوا لهدايتهم كزكريا ويحيى عليهما السلام .

(وقولهم قلوبنا غلف) جمع أغلف وهو ما عليه غلاف . أى لاينفذ إليها شىء مما جاء به الرسول ولا يؤثر فيها وهذا كقوله حكاية عن المشركين « وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ » وغير ذلك من سيئاتهم التى ستذكر بعد ـ فعلنا بهم ما فعلنا من لعن إلى غضب إلى ضرب الذلة والمسكنة و إزالة الملك والاستقلال ، لأن هذه الذنوب فرقت شملهم وذهبت بقوتهم وأفسدت أخلاقهم إلى غير ذلك من أنواع البلاء التى سببها الكفر والعصيان .

(بل طبع الله عليها بكفرهم) طبع الله عليها جعلها كالسكة المطبوعة فى قساوتها وجعلها بوضع خاص لا تقبل غيره أى ليس ما وصفوا به قلوبهم هو الحق الواقع ، بل لأن الله ختم عليها بسبب كفرهم الكسبى وماله من الأثر القبيح فى أعمالهم وأخلاقهم ، فهم باستمرارهم على ذلك الكفر لاينظرون فى شئ آخر نظر استدلال واعتبار ، مع أنه من الأمور التى يصل إليها اختيارهم ، ولكنهم لا يختارون إلا ما ألفوا وتعودوا .

(فلا يؤمنون إلا قليلا) أى إلا قليلا من الإيمان لا يعتد به لأنه تفريق بين الله ورسله، فالكفر ببعضهم كالكفر بجميعهم وهم قد كفروا بعيسى ومحمد عليهما السلام.

(وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما) المراد بالكفر هنا الكفر بعيسى عليه السلام بدليل مابعده ، و بالكفر الذى قبله الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم بقرينة قوله : وقالوا قلوبنا غلف ، والبهتان الكذب الذى يبهت من يقال فيه أى يدهشه و يحيره لبعده وغرابته ، والمراد به هنا رميها بالفاحشة .

والمعنى — أى وطبع الله عليها بكفرهم بعيسى وأمه ورميهم إياها بالكذب العظيم وأى بهتان تبهت به العذراء التقية أعظم من هذا ؟

والخلاصة — إن هذا الكفر والبهتان من أسباب ما حل بهم من غضب الله .

(وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله) أى و بسبب قولهم هذا

القول المؤذن بالجرأة على الباطل والاستهزاء بآيات الله .

وذكروه بوصف الرسالة تهكما واستهزاء بدعوته بناء على أنه إنما ادعى النبوة والرسالة فيهم لا الألوهية ، كما ادعت النصارى إذ جاء فى رواية إنجيل يوحنا (وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته) .

(وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) أى والحال أنهم ما قتلوه كما ادعوا وما صلبوه كما زعموا وشاع بين الناس ولكن وقع لهم الشبه فظنوا أنهم صلبوا عيسى وهم إنما صلبوا غيره ومثل هذا الشبه يحدث كثيرا فى كل زمان وتحكى عنه نوادر وحوادث غاية فى الغرابة لكنها قد وقعت فعلا .

فقد ذكر بعض المؤلفين فى الطب الشرعى من الإنكليز حادثة وقعت سنة ١٥٣٩ فى فرنسا استحضر فيها ١٥٠ شخصا لمعرفة شخص يدعى (مارتين جير) جزم أربعون منهم بأنه هو هو وقال خمسون إنه غيره والباقون ترددوا ولم يمكنهم أن يبدو رأيا ثم اتضح من التحقيق أن هذا الشخص كان غير مارتين جير وانخدع به هؤلاء الشهود المثبتون وعاش مع زوجته مارتين محوطا بأقار به وأصحابه ومعارفه ثلاث سنوات وكلهم مصدق أنه مارتين ، ولما حكمت المحكمة عليه بظهور كذبه بالدلائل القاطعة استأنف الحكم فى محكمة أخرى فأحضر ثلاثون شاهدا أقسم عشرة منهم بأنه هومارتين ، وقال سبعة إنه غيره وتردد الباقون على أن هذه الحادثة من خوارق العادات التى أيد الله بها نبيه عيسى بن مريم وأنقذه من أعدائه فألقى شبهه على غيره وغير شكله فخرج من بينهم وهم لايشعرون ، وفى أناجيلهم وكتبهم نصوص متفرقة تؤيد هذا الوجه ؛ وإذا قال قائل : وإذا كان المسيح قد نجا من أعدائه فأين ذهب ؟ والجواب أنا إذا قلنا إنه رفع بروحه وجسده إلى السماء فلا ترد هذه الشبهة ، وإذا قلنا إن الله توفاه فى الدنيا ثم رفعه إليه كما رفع إدريس عليهما السلام فلا غرابة فى ذلك ، فإن أخاه موسى عليه السلام قد انفرد عن قومه فى مكان لم يعرفه أحد منهم ، وكانوا ألوفا عدة خاضعين لأمره ونهيه فكيف يستغرب أن يفر عيسى عليه السلام من قوم هم أعداء

له لا ولى له فيهم ولا نصير إلا أفراد من الضعفاء قد انفضوا من حوله وقت الشدة ، وقد أنكره أمثلهم بطرس الحوارى ثلاث مرات .

(وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن) قال فى لسان العرب : الشك ضد اليقين ، فالشك فى صَلب المسيح هو التردد فيه أهو المصلوب كان أم غيره ؟

والمعنى — وإن الذين اختلفوا فى شأن عيسى من أهل الكتاب فى شك من حقيقة أمره وفى تردد إذ ليس لهم به من علم قطعى الثبوت وإنما هم يتبعون الظن والقرائن التى ترجح بعض الآراء على بعض، وقد جاء فى بعض الأناجيل التى يعولون عليها أنه قال لتلاميذه (كلكم تشكون فىّ هذه الليلة) أى الليلة التى يطلب فيها للقتل (إنجيل متى من ٢٦ — ٣١ ومرقس من ١٤ — ٢٧) .

وإذا كانت أناجيلهم تنطق بأنه أخبر تلاميذه وعرف الناس بأنهم سيشكون فيه فى ذلك الوقت ، وخبره صادق قطعا ، فهل من العجيب اشتباه غيرهم وشك من دونهم فى أمره .

(وما قتلوه يقينا) أى وما قتلوا عيسى بن مريم وهم متيقنون أنه هو بعينه إذ هم لم يكونوا يعرفونه حق المعرفة والأناجيل التى يعول عليها صريحة فى أن الذى أسلمه إلى الجند هو يهوذا الاسخريوطى وقد جعل لهم علامة أن من قبّله يكون هو المسيح فلما قبله قبضوا عليه ، وإنجيل برنابا يصرح بأن الجنود أخذوا يهوذا الاسخريوطى نفسه ظنا أنه هو المسيح لأنه ألقى عليه شبهه ، ومن هذا تعلم أن الجند ما كانوا يعرفون شخص المسيح معرفة يقينية .

والخلاصة — إن روايات المسلمين جميعها متفقة على أن عيسى عليه السلام نجا من أعدائه ومريدى قتله فقتلوا آخر ظنا منهم أنه هو .

(بل رفعه الله إليه) هذه الآية كآية آل عمران « إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » وقد رُوِيَ عن ابن عباس أنه

فسر التوفى بالأماتة ، وعن ابن جريج تفسيره بالأخذ والقبض والمراد منه ومن الرفع إنقاذه من الذين كفروا بعناية من الله بعد أن اصطفاه إليه وقربه .

وقال ابن جرير نقلا عن ابن جريج فرفعه إياه توفيه إياه وتطهيره من الذين كفروا أى فليس المراد الرفع إلى السماء بالروح والجسد ولا بالروح فقط ، وعن تفسير ابن عباس فمعنى الرفع رفع الروح ولكن المشهور بين جمهرة المفسرين وغيرهم أن الله تعالى رفعه بروحه وجسده إلى السماء بدليل حديث المعراج إذ أن النبى صلى الله عليه وسلم رآه هو وابن خالته يحيى فى السماء الثانية ، وأنت ترى أنه لا دليل لهم فى ذلك إذ لو دل هذا على ما يقولون لدل على رفع يحيى وسائر من رآهم من الأنبياء فى سائر السموات ولا قائل بذلك .

وقال الرازى — المعنى رافعك إلى محل كرامتى ، وجعله رفعا للتفخيم والتعظيم كقوله حكاية عن إبراهيم « إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى » وهو إنما ذهب من العراق إلى الشام ، والمراد رفعه إلى مكان لا يملك الحكم فيه عليه إلا الله اهـ .

(وكان الله عزيزا حكيما) أى إن الله عزيز يغلب ولا يغلب ، وبهذه العزة أنقذ عبده ورسوله من اليهود الماكرين وحكام الروم الظالمين وبحكمته جازى كل عامل بعمله ، ومن ثم أحل باليهود ما أحل بهم من الذلة والمسكنة والتشريد فى الأرض وسيوفيهم جزاءهم يوم القيامة «يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلّهِ» .

(وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) أى إن كل أحد من أهل الكتاب عند ما يدركه الموت ينكشف له الحق فى أمر عيسى وسواه من أمور الدين فيؤمن بعيسى إيمانا حقا لا زيغ فيه ولا ضلال ، فاليهودى يعلم أنه رسول صادق فى رسالته ليس بالكذاب ، والنصرانى يعلم أنه عبد الله ورسوله وليس بإله وليس هو بابن لله

وفائدة إخبارهم بذلك — أنه لا ينفعهم حينئذ فعليهم أن يبادروا به قبل أن يضطروا إليه مع عدم الجدوى والفائدة .

(ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) أى ويوم القيامة يشهد عيسى عليهم بما تظهر به حقيقة حاله معهم كما حكى الله عنه من قوله : « مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ » فهو يشهد للمؤمنين منهم بالإيمان حال التكليف والاختيار وعلى الكافر بالكفر إذ هو مرسل إليهم وكل نبى شهيد على قومه كما قال تعالى (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيداً) وقد ورد فى الآثار ما يدل على اطلاع الناس قبل موتهم على منازلهم من الآخرة ، فيبشرون برضوان الله أو بعذابه وعقوبته ، روى البخارى عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته ، وإن الكافر إذا حُضِرَ (حضره الموت) بشر بعذاب الله وعقوبته » وروى ابن مردويه عن ابن عباس « مامن نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة أو النار » .

وهذا يؤيد ما روى عن ابن عباس فى تفسير الآية من أن الملائكة تخاطب من يموت من أهل الكتاب قبل خروج روحه بحقيقة أمر المسيح مع الانكار الشديد والتقبيح .

(فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١) لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيماً (١٦٢)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فضائح اليهود وقبيح أعمالهم ، ذكر هنا تشديده عليهم فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فبتحريم طيبات كانت محللة لهم ، وأما فى الآخرة فيما بينه الله بقوله (وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما) .

الايضاح

(فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أحلت لهم) أى فبسبب ظلمهم استحقوا تحريم طيبات كانت محللة لهم ولمن قبلهم عقوبة وتربية لهم ، لعلهم يرجعون عن ظلمهم ، وكانوا كلما ارتكبوا معصية يحرم عليهم نوع من الطيبات وهم مع ذلك كانوا يفترون على الله الكذب ، ويقولون لسنا بأول من حرمت عليه ، بل كانت محرمة على نوح وإبراهيم فكذبهم الله فى مواضع كثيرة كقوله : « كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ » .

أما الطيبات التى حرمها عليهم فهى ما بيّن فى قوله عز اسمه « وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ » الآية . وقد أبهمها الله هنا لأن الغرض من السياق العبرة بكونها عقوبة لا بيانها فى نفسها ، كما أبهم الظلم الذى كان سببا فى العقوبة ليعلم أن أى نوع منه يكون سببا للعقاب فى الدنيا قبل الآخرة .

والعقاب إما دنيوى كالتكاليف الشاقة زمن التشريع ، والجزاء الوارد فى الكتب على الجرائم كالحد والتعزير وما اقتضته السنن التى سنها الله فى نظم الاجتماع من كون الظلم سببا لضعف الأمم وفساد عمرانها واستيلاء الأمم الأخرى عليها ، وإما أخروى وهو ما بينه فى الكتاب الكريم من العذاب فى النار .

(وبصدهم عن سبيل الله كثيرا) الصد والصدود المنع وهو يشمل صدهم أنفسهم عن سبيل الله بما كانوا يعصون به موسى ويعاندونه مرارا ، وصدهم الناس عن سبيل الله بسوء القدوة أو بالأمر بالمنكر والنهى عن المعروف ، وهو من البيان والتفصيل للظلم بعد إجماله وإبهامه ، وهو أوقع فى النفس وأبلغ فى الموعظة .

(وأخذهم الربا وقد نهوا عنه) أى و بسبب أخذهم الربا وقد نهوا عنه على ألسنة أنبيائهم ، والتوراة التى بين أيديهم إنما تصرح بتحريم أخذهم الربا من شعبهم ومن إخوتهم دون الأجانب فقد جاء فى سفر الخروج (إن أقرضت فضة لشعبى الفقير الذى عندك فلا تكن له كالمرابى ، لاتضعوا عليه ربا) وفى سفر تثنية الاشتراع (لا تقرض أخاك بربا ، ربا فضة أو ربا شىء ما مما يقرض ربا ، للأجنبى تقرض بربا ، ولكن لأخيك لا تقرض بربا) وهذه عبارة التوراة التى كتبت بعد السبى ، وثبت تحريفها بالشواهد الكثيرة ، أما النسخة التى كتبها موسى فقد فقدت باتفاق اليهود والنصارى .

و بعض أنبيائهم قد نهوا عن الربا إطلاقا فلم يقيدوه بشعب إسرائيل كقول داود فى المزمور الخامس عشر : فضته لا يعطيها بالربا ولا يأخذ الرشوة من البرىء ، وقول سليمان فى سفر الأمثال (المكثر ماله بالربا والمرابحة فلمن يرحم الفقراء يجمعه) .

(وأكلهم أموال الناس بالباطل) بالرشوة والخيانة ونحوهما مما أُخذ فيه المال بلا مقابل يُعتد به ، ونحو الآية قوله تعالى : « سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ » والسحت : الكسب الحرام فقد كانوا يأخذون أثمان الكتب التى يكتبونها بأيديهم ثم يقولون هى من عند الله .

و بعد أن ذكر وجوه الذنوب التى اقترفوها والجرائم التى ارتكبوها بين جزاءهم عليها فى الآخرة فقال :

(وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما) أى هيأنا وأعددنا للذين كفروا منهم برسل الله عذابا مؤلما فى نار جهنم خالدين فيها أبدا .

و بعد أن بين فى هذا السياق سوء حال اليهود وكفرهم وعصيانهم وأطلق القول فى ذلك ، وكان هذا مما يوهم أنه شامل لكل أفرادهم جاء الاستدراك عقبه ببيان حال خيارهم الذين لم يذهب عمى التقليد بنور عقولهم فقال :

(لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل

من قبلك) أى لكن أهل العلم الصحيح بالدين منهم المستبصرون فيه غير التابعين للظن الذين لايشترون به ثمنا قليلا من المال والجاه ، والمؤمنون من أمتك إيمان إذعان لا إيمان عصبية وجدل ، يؤمنون بما أنزل إليك من البينات والهدى وما أنزل على موسى وعيسى وغيرهما من الرسل ، ولا يفرقون بين الله ورسله بهوى ولا عصبية .

روى ابن إسحق والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس أن الآية نزلت فى عبد الله ابن سلام وأُسَيد بن سَعْية وثعلبة بن سَعْية حين فارقوا يهود وأسلموا .

(والمقيمين الصلاة) أى وأخص منهم المقيمين الصلاة الذين يؤدونها على وجه الكمال ، فهم أجدر المؤمنين بالرسوخ فى الإيمان ، إذ إقامتها بتعديل أركانها علامة كمال الإيمان واطمئنان النفس به .

(والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر) أى والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر مثل المقيمين الصلاة فى استحقاق المدح بالتبع ، إذ إقامتها تستدعى إيتاء الزكاة فإن الذى يقيمها على الوجه الذى طلبه الدين لايمنع الزكاة ، إذ هى مما تزكى النفس وتعلى الهمة وتهون على النفس المال قال تعالى : « إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ، وإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلاَّ الْمُصَلِّينَ » الآية .

(أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما) أى هؤلاء الذين وصفوا بما ذكر كله سنعطيهم أجرا عظيما لايدرك وصفه إلا علام الغيوب .

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ، وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ، وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤) رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ

وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١٦٥) لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ، وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً (١٦٦)

المعنى الجملى

لايزال الحديث مع أهل الكتاب فإنه ذكر عنهم أولا أنهم يفرقون بين الله ورسله فيؤمنون ببعض و يكفرون ببعض، ثم انتقل إلى ذكر شىء من عنادهم وإعنائهم للنبى صلى الله عليه وسلم وطلبهم أن ينزل عليهم كتابا من السماء و بين أنه لاغرابة فى ذلك فقد شاغبوا موسى من قبله وسألوه ما هو أكبر من ذلك ، ثم ذكر كفرهم بعيسى عليه السلام و بهتهم أمه ومحاولتهم قتله وصلبه ، وفى كل هذا دليل على تأصل العناد فيهم ، ولولا ذلك لما شاغبوك ، فإن الدليل على نبوتك أوضح مما يدعون الإيمان بمثله ممن قبلك — وهنا ختم الكلام فى محاجتهم ببيان أن الوحى جنس واحد ، ولو كان إيمانهم بالرسل السابقين صحيحا لما كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم .

الإيضاح

(إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) الوحى لغة الإيماء والإشارة كما قال تعالى : « فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وعَشِيًّا » والإلهام الذى يقع فى النفس كما قال : « وأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ» وما يكون غريزة دائمة كما قال : « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وِمِمَّا يَعْرِشُونَ » والإعلام فى خفاء بأن تعلم إنسانا بأمر تخفيه على غيره كما قال : « شَيَاطِينَ الْإِنْسِ الْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ » .

ووحى الله إلى أنبيائه هو عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة ، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت و يفرق

بينه و بين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى ، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور .

والمعنى إنا قد أوحينا إليك هذا القرآن كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ممن يؤمن بهم هؤلاء الناس ، والله لم ينزل على أحد منهم كتابا من السماء كما سألوك للتعجيز والعناد ، لأن الوحى ضرب من الإعلام السريع الخفى ، وليس هو بالأمر المشاهد الحسى ، وقد بدأ الله بذكر نوح لأنه أقدم الأنبياء ، وقصص بعثته فى سفر التكوين وهو أحد الأسفار الخمسة التى تتضمنها التوراة .

(وأوحينا إلى إبراهيم و إسماعيل و إسحاق و يعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان) . الأسباط واحدهم سبط وهو ولد الولد ، وأسباط بنى إسرائيل اثنا عشر سبطا وهم أبناء يعقوب العشرة وولدا ابنه يوسف ، والأسباط فى بنى إسرائيل كالقبائل فى ولد إسماعيل .

(وآتينا داود زبورا) الزبور الكتاب وكل كتاب زبور، وهو هنا اسم للكتاب المنزل على داود وقد أفرد بالذكر لأن له شأنا خاصا عند أهل الكتاب .

(ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل) أى وأرسلنا غير هؤلاء رسلا آخرين قد قصصناهم عليك من قبل تنزيل هذه السورة ، وهم الذين ذكرت أسماؤهم فى السورة المكية كقوله فى سورة الأنعام فى سياق الكلام عن إبراهيم « وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ . وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ » .

وأجمع السور لقصص الأنبياء هود والشعراء .

(ورسلا لم نقصصهم عليك) كالذين أُرسِلوا إلى الأُمم المجهول تاريخها عند قومك وعند أهل الكتاب المجاورين لبلادك كالصين واليابان والهند وأوربا وأمريكا .

و إنما لم يقص الله علينا خبرهم لأن القصد من القصص العبرة والتثبيت والذكرى والاحتجاج على نبوته صلى الله عليه وسلم كما أشار إلى ذلك فى قوله تعالى: « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » وقوله : « وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ » وكل هذا يثبت بذكر من قصهم الله علينا من الرسل ، وعلينا أن نعلم أن الله أرسل رسلا فى كل الأُمم فكانت رحمته بهم عامة لا مختصة بشعب معين كما يزعم أهل الكتاب ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى : « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ » وقوله : « وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ » وهذه حقيقة دل عليها الدين السماوى ولم يكن يعلمها أهل الكتاب الذين يزعمون أن القرآن مقتبس من كتبهم ، وكم فيه من حقائق جلاّها للناظرين بجميل بيانه واهتدى العلم الصحيح بعد قرون خلت إلى معرفتها ، وما كان العقل وحده يكشف عنها لولا أن هدى إليها الكتاب الكريم .

(وكلم الله موسى تكليما) خاصّاً له ميزه عن غيره من ضروب الوحى العامّ لأولئك النبيين وليس لنا أن نخوض فى معرفة حقيقته لأنا لم نكن من أهله ، فنحن لا نعرف حقيقة كلام بعضنا بعضا ، وكيف تحمل ذرات الهواء الأصوات إلى الآذان فضلاً عن أن تعرف حقيقة كلام البارى .

والوحى إلى الأنبياء يسمى تكليما والتكليم لهم يسمى وحيا كما قال تعالى : « وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ) .

والحكمة فى الحجاب الاستعداد بالتوجه إلى شىء واحد تتحد فيه هموم النفس وأهواؤها المتفرقة كما كان شأن موسى إذ رأى النار فى الشجرة .

والرسول الذى يرسله الله فيوحى بإذنه ما يشاء هو ملك الوحى المعبر عنه بالروح الأمين .

(رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) أى أرسلنا رسلا قد قصصنا بعضهم عليك ولم نقصص بعضا آخر ليكونوا مبشرين من آمن وعمل صالحا بالثواب العظيم ، وينذروا من كفر وأجرم بالعذاب الأليم ، إذ لو لم يرسلهم لكان للناس أن يحتجوا إذا هم أجرموا أو كفروا بأنهم ما فعلوا ذلك إلا لجهلهم ما يجب من الإيمان والعمل الصالح كما قال تعالى (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى) وقال (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) .

والخلاصة ـ إن من حكمة إرسال الرسل قطع حجة الناس واعتذارهم بالجهل عند ما يحاسبهم الله ويقضى بعقابهم ، فلولا إرسالهم لكان لهم أن يحتجوا فى الآخرة على عذابهم فيها وعلى عذاب الدنيا الذى كان قد أصابهم بظلمهم .

والدين وضع إلهى لا يستقل العقل بالوصول إليه ولا يعرف إلا بالوحى وهو موافق لسنن الفطرة فى تزكية النفوس وإعدادها للحياة الأبدية فى عالم القدس ويترتب على العمل به أو تركه جزاء حدده الله فى الدنيا والآخرة ولن يكون هذا الجزاء إلا لمن بلغته الدعوة على الوجه الصحيح .

(وكان الله عزيزا حكيما) أى وكان الله عزيزا لا يغالب فى أمر يريده ، ومن عزته ألا يجاب المتعنت إلى مطلوبه ، حكيما فى جميع أفعاله ، وحكمته تقضى هذا الامتناع ، لأنه يعلم أنه لو فعل ذلك لأصروا على لجاجهم كما فعلوا مع موسى بعد أن جاءهم بما طلبوا .

(لكن الله يشهد بما أنزل إليك) هذا استدراك على ما علم من السياق من إنكارهم نبوته صلى الله عليه وسلم وعدم شهادتهم بها وهى واضحة عندهم فى مرتبة المشهود به ، لكنهم استبدلوا المباهتة والمكابرة بالشهادة والإيمان ، فسألوه أن

ينزل عليهم كتابا من السماء يثبت دعواه ، ويكون شاهدا له ، فكأنه تعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : إنهم مع وضوح نبوتك لا يشهدون بما أنزل إليك ، لكن الله يشهد به .

(أنزله بعلمه) أى فإنه أنزله بعلمه الخاص الذى لم تكن تعلمه أنت ولا قومك بتأليفه على نظم وأسلوب يعجز عنه كل بليغ وصاحب بيان ، وبما فيه من العلوم الإلهية والأدبية والسياسية والاجتماعية ومن علوم الأنبياء والرسل والأمم ، وبما له من السلطان على الأرواح بهدايته ، وبما فيه من أنباء الغيب عن الماضى والحاضر والمستقبل وهو بهذه المزايا مثبت لشهادة الله به وأنه وحى من عنده .

والخلاصة ـ كأن الله تعالى يقول لنبيه إن جحود هؤلاء اليهود وعدم شهادتهم لك لا يضرك بشىء فالله يشهد بما أنزل إليك وأنت على يقين من ذلك الوحى ، وقد أيد الله شهادته لك بما أودعه فى هذا القرآن فكان بذلك مثبتا لكونه أنزل عليك من ربك ، كما أيده بتصديق ما أنزله فيه من الوعد بالفلاح والنصر والوعيد لمن عاداك بالخذلان والخسران .

(والملائكة يشهدون) أى والملائكة يشهدون بذلك أيضا ، لأن الذى نزل به إليك هو الروح الأمين وهو منهم كما يؤيدك بجند منهم يثبتونك ويثبتون المؤمنين فى القتال كما فى غزوة بدر قال تعالى « إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ » .

(وكفى بالله شهيدا) على ما شهد به لك حيث نصب الدليل وأوضح السبيل فشهادته أصدق وقوله الحق « قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ؟ قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ » .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ

وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا (١٦٩) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧٠)

المعنى الجملى

بعد أن أوضح سبحانه فى الآيات السالفة الحجة ، وأزال ما كان لليهود من شبهة ، وأثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بشهادة الله بما أنزل عليه مما لم يستطع البشر أن يأتوا بمثله — أنذر فى هذه الآيات من يصرّ منهم على الكفر و يستمر على الإعراض والظلم ، و بين لهم سوء العاقبة .

الإيضاح

(إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا) أى إن الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وصدوا غيرهم عن سبيل الله بإلقاء الشبهات فى قلوبهم كقولهم لو كان رسولا لأتى بكتابه دفعة واحدة من السماء كما نزلت التوراة على موسى ، وقولهم إن الله تعالى ذكر فى التوراة أن شريعة موسى لاتبدل ولا تنسخ إلى يوم القيامة ، وقد ضلوا ضلالا بعيدا لأن أشد الناس ضلالا من كان ضالا و يعتقد فى نفسه أنه محق ، و يتوسل بذلك الضلال إلى اكتساب المال فهو قد سار فى سبيل الشيطان وبعد عن سبيل الله فلم يعد يفقه أنها هى الموصلة إلى خير العاقبة .

(إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم) أى إن الذين كفروا بما أنزل إليك وظلموا أنفسهم بإعراضهم عن الطريق الموصل إلى الخير والسعادة وظلموا غيرهم بإغوائهم إياهم بزخرف قولهم وسوء سيرتهم وصدهم عن الصراط

المستقيم ـ ليس من سنته تعالى أن يغفر لهم ذلك الكفر والظلم يوم الحساب والجزاء لأن الكفر والظلم قد أفسدا فطرتهم وأثرا فى نفوسهم وأعميا قلوبهم وجعلاها تستمرئ قبيح الأفعال وتهوى شر الخلال والأعمال ـ ولا يزول هذا إلا إذا اتجهت نفوسهم إلى ما يضاد ذلك من إيمان صحيح وعمل صالح يزكى النفوس مما ران عليها ويطهرها وينشئها نشأة أخرى ، ولا سبيل إلى ذلك يوم الجزاء والحساب ومن ثم قال تعالى :

(ولا ليهديهم طريقا إلا طريق جهنم) أى وليس من شأنه أن يهدى أمثالهم طريقا يوصلهم إلى الجزاء على أعمالهم إلا طريق جهنم ، فهى الطريق التى ينتهى إليها من دسى نفسه بالكفر والظلم وأوغل فى السير فيها طول عمره واستمرأ الشرور والمفاسد حتى هوت به إلى واد سحيق .

فانتظار المغفرة ودخول الجنات لأمثال هؤلاء انتظار لإبطال نظام العالم ونقض لسنن الله وحكمته فى خلق الإنسان .

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليبس

(خالدين فيها أبدا) الخلود بقاء الشىء مدة طويلة على حال واحدة لا يطرأ عليه فيها تغيير ولا فناء ، والأبد الزمن الممتد ، وتأبد الشىء بقى أبدا وأبد بالمكان أبودا أقام به ولم يبرحه ، أى يدخلونها ويذوقون عذابها حال كونهم خالدين فيها أبدا لا يخرجون منها .

(وكان ذلك على الله يسيرا) أى وكان ذلك الجزاء سهلا على الله دون غيره لأنه مقتضى حكمته وسننه وليس بالعزيز على قدرته .

وفى هذا تحقير لأمرهم وبيان لأن الله لا يعبأ بهم ولا يبالى بشأنهم .

(يأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم) بعد أن أقام الحجة على أهل الكتاب ورد شبهاتهم واقتراحهم ما اقترحوا تعنتا وعنادا ـ خاطب جميع الناس

وأمرهم بالإيمان وشفعه بالوعد على عمل الخير والوعيد على عمل الشر ، للإيماء إلى أن الحجة قد وضحت والمحجة قد لزمت فلم تبق معذرة فى الإعراض والصد عن اتباع الدعوة وقبول الحق من هذا الرسول الكريم ، وقد كان اليهود ينتظرون من الله مسيحا ونبيا بشر بهما أنبياؤهم ، فقد جاء فى الفصل الأول من انجيل يوحنا ـ أنهم أرسلوا بعض الكهنة والأحبار إلى يوحنا (يحيى عليه السلام) ليسألوه من هو ؟ وكانت قد ظهرت عليه أمارات النبوة ـ فسألوه أأنت المسيح ؟ قال لا ، قالوا أأنت النبى ؟ قال لا ـ من هذا تعلم أن يهود العرب ونصاراهم لما سمعوا هذه الآية زمن التنزيل فهموا أن المراد به الرسول الذى بشرهم به موسى صلى الله عليه وسلم فى التوراة فى سفر تثنية الاشتراع وعيسى فى الإنجيل وغيرهما من الأنبياء .

(فآمنوا خيرا لكم) أى فآمنوا يكن الإيمان خيرا لكم لأنه يزكيكم ويطهركم من الدنس والرجس ويؤهلكم للسعادة الأبدية .

(وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات والأرض) أى وإن تكفروا فإن الله غنى عن إيمانكم وقادر على جزائكم بما يقتضيه كفركم وسوء عملكم ، فإن له ما فى السموات والأرض ملكا وخلقا وكلهم عبيده ينقادون لحكمه طوعا أو كرها ، فعبادة الكره وعدم الاختيار تكون بالخضوع لقدرته وسننه فى الأكوان وهى عامة فى جميع الخلق سواء منها العاقل وغيره ، وعبادة الاختيار خاصة بالمؤمنين الأخيار والملائكة الأبرار .

(وكان الله عليما حكيما) أى وكان شأنه تعالى العلم المحيط والحكمة الكاملة فى جميع أفعاله وأحكامه فهو لا يخفى عليه أمركم فى إيمانكم وكفركم وسائر أحوالكم ، ومن حكمته أن يجازيكم على ما تجترحون من الآثام والموبقات ، فإنه لم يخلقكم عبثا ولن يتركم سدى فطوبى لمن نهى النفس عن الهوى وآثر الآخرة على الدنيا ، وويل لمن أعرض عن ذكر ربه وأعرض عن أمره ونهيه وحالف الشيطان وحزبه .

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا (١٧١) لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ، وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧٣)

شرح المفردات

الغلو: مجاوزة الحد، وكلمته أى إنه حدث بكلمة كن من غير مادة معتادة، ألقاها إلى مريم: أوصلها وأبلغها إياها، وروح منه أى لأنه خلق بنفخ من روح الله وهو جبريل، الاستنكاف: الامتناع عن الشيء أنفة وكبرا، والاستكبار أن يجعل الإنسان نفسه كبيرة فوق ما هى عليه غرورا وإعجابا بها.

المعنى الجملى

بعد أن انتهى من محاجة اليهود وإقامة الحجة عليهم، وهم قد غلوا فى تحقير عيسى وإهانته وكفروا به ـ ذكر هنا محاجة النصارى خاصة ودحض شبهاتهم، وهم قد غلوا فى تعظيم عيسى وتقديسه، كما دحض شبهات اليهود فيما سلف.

الإيضاح

(يا أهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق) أى لا تتجاوزوا الحدود التى حدها الله ، فإن الزيادة فى الدين كالنقص فيه ، ولا تعتقدوا إلا القول الحق الثابت بنص دينى متواتر ، أو برهان عقلى قاطع ، وليس لكم على ما زعمتم من دعوى الاتحاد والحلول واتخاذ الصاحبة والولد شىء منها .

(إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله) إلى بنى إسرائيل ، وقد أمرهم بأن يعبدوا الله وحده ولايشركوا به شيئا، وزهدهم فى الدنيا ، وحثهم على التقوى ، و بشرهم بمحمد خاتم النبيين، وأرشدهم إلى الاعتدال فى كل شىء فهداهم إلى الجمع بين حقوق الأبدان وحقوق الأديان .

(وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) وهو مكون بكلمته وأمره الذى هو « كن » من غير واسطة أب ولا نطفة ، فإنه لما أرسل إليها الروح الأمين جبريل بشرها بأنه مأمور بأن يهب لها غلاما زكيا فاستنكرت ذلك إذ هى عذراء لم تتزوج فقال لها : « كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » فكلمة (كن) هى الكلمة الدالة على التكوين بمحض القدرة عند إرادة خلق الشىء و إيجاده .

وهو أيضا مؤيد بروح منه كما قال تعالى : « وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ » وكما قال فى صفات المؤمنين « أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ » .

وآية الله فى خلق عيسى بكلمته وجعله بشرا سويا بما نفخ فيه من روحه كآيته فى خلق آدم بكلمته وما نفخ فيه من روحه فخلقهما كان بغير السنة العامة فى خلق الناس من ذكر وأنثى « إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » :

وزعم بعض النصارى أن كلمة (منه) تدل على أن عيسى جزء من الله بمعنى أنه ابنه ، فقد نقل بعض المفسرين أن طبيبا نصرانيا للرشيد ناظر على بن حسين الواقدى المروزى ذات يوم فقال له: إن فى كتابكم ما يدل على أن عيسى عليه السلام جزء منه تعالى وتلا الآية ، فقرأ له الواقدى قوله تعالى : « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَافِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ » فلئن صح ما تقول لزم أن تكون جميع هذه الأشياء جزءاً منه تبارك وتعالى ـ فأفحم النصرانى وأسلم ففرح بذلك الرشيد ووصل الواقدى بصلة عظيمة .

وقد جاء فى إنجيل متى (أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا ، لما كانت أمه مريم مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وجدت حبلى من الروح القدس) . (وفى إنجيل لوقا تفصيل لظهور الملك جبريل لها وتبشيره إياها بولد ومحاورتهما فى ذلك ، ومنها أنها سألته عن كيفية ذلك فقال لها (الروح القدس يحل عليك) .

وفى هذا الفصل أن اليصابات أم يحيى امتلأت من الروح القدس و بذلك حملت بيحيى وكانت عاقرا وأن زكريا أباه امتلأ من الروح القدس .

ومن هـذا تعلم أن روح القدس عندهم وعندنا واحد وهو ملك من ملائكة الله الذين لا يحصى عددهم وأن عيسى خلق بواسطته وكذلك يحيى وكان خلقه من وجه آخر إذ كان أبوه شيخا كبيرا وأمه عاقرا ولـكن الواسطة والسبب واحد وهو الملك المسمى بروح القدس أيدهم الله به رجالا ونساء فلا يستفاد إذاً من قوله : وروح منه ، أنه جزء من الله ، تعالى الله عن التركيب والتجزؤ والحلول والاتحاد بخلقه .

(فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة) أى فآمنوا بالله إيمانا يليق به ، وهو أنه واحد أحد تنزه عن صفات الحوادث ، وأن كل مافى الـكون مخلوق له وهو الخالق له ، وأن الأرض فى مجموع ملـكه أقل من حبة رمل بالنسبة إلى اليابس منها ، ومن نقطة ماء بالنسبة إلى بحارها وأنهارها ، وآمنوا برسله كلهم إيمانا يليق بشأنهم وهو

أنهم عبيد له خصهم بضروب من التكريم والتعظيم وألهمهم بضرب من العلم والهداية بالوحى ليعلموا الناس كيف يوحدون ربهم ويعبدونه ويشكرونه ، ولا تقولوا : الآلهة ثلاثة الآب والابن وروح القدس ، أو الله ثلاثة أقانيم كل منها عين الآخر ، وكل منها إله كامل ، ومجموعها إله واحد .

فإن فى هذا تركا للتوحيد الذى هو ملة إبراهيم وسائر الأنبياء واتباعا لعقيدة الوثنيين ، والجمع بين التثليث والتوحيد تناقض تحيله العقول ولا يقبله أولو الألباب .

(انتهوا خيرا لكم) أى انتهوا عنه وقولوا قولا آخر خيرا لكم منه ، وهو قول جميع النبيين والمرسلين الذين جاءوا بتوحيد الله وتنزيهه ، فإن المسيح الذى سميتموه إلها يقول كما فى إنجيل يوحنا (وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيق وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته) .

(إنما الله إله واحد) بالذات منزه عن التعدد ، فليس له أجزاء ولا أقانيم ولا هو مركب ولا متحد بشىء من المخلوقات .

(سبحانه أن يكون له ولد) أى تقدس عن أن يكون له ولد كما قلتم فى المسيح إنه ابنه وإنه عينه فإنه تبارك وتعالى ليس له مماثل فيكون له منه زوج يتزوجها فتلد له ولدا .

والتعبير بالولد دون الابن الذى يعبرون به فى كلامهم ، لبيان أنهم إذا كانوا يريدون الابن الحقيقى الذى يفهم من هذا اللفظ فلابد أن يكون ولدا أى مولودا من تلقيح أبيه لأمه وهـــذا محال على الله تعالى ، وإن أرادوا الابن المجازى لا الحقيقى فلا خصوصية لعيسى فى ذلك لأنه قد أطلق فى كتب العهد العتيق والعهد الجديد على إسرائيل وداود وغيرهما من الأخيار .

(له مافى السموات ومافى الأرض) أى إنه ليس له ولد يصح أن يسمى ابنا له حقيقة بل له كل مافى السموات ومافى الأرض خلقا وملكا والمسيح من جملتها كما قال تعالى : « إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْدًا » .

ولا فرق فى هذا بين الملائكة والنبيين ، ولا بين من خلقه ابتداء من غير أب ولا أم كالملائكة وآدم ، ومن خلقه من أصل واحد كحواء وعيسى ومن خلق من الزوجين الذكر والأنثى ، فكل هؤلاء عبيده يحتاجون إلى فضله وكرمه وجوده وهو يتصرف فيهم كما يشاء .

(وكفى بالله وكيلا) أى كفى به حافظا ووكيلا إذا وكلوا أمورهم إليه ، فهو غنى عن الولد فإن الولد إنما يحتاج إليه أباه ليعينه فى حياته ، ويقوم مقامه بعد وفاته ، والله تعالى منزه عن كل ذلك .

هذا ، وعقيدة التثليث وثنية نقلها الوثنيون المتنصرون إلى النصرانية واعتمدوا فى ذلك على بعض ألفاظ فى الكتب اليهودية جعلوها تُكأةً على ما أرادوا وحرّفوا فيها وأولوا لتفيد ما ادعوا ، وبذا هدموا آيات التوحيد ، وقد فصل ذلك علماء أوربا وأتوا عليه بشواهد كثيرة من الآثار القديمة والتاريخ ، فقال البحاثة موريس فى كتابه (الآثار الهندية القديمة) كان عند أكثر الأمم البائدة تعاليم دينية جاء فيها القول باللاهوت الثلاثى أو الثالوثى .

وقال مستر فابر فى كتابه (أصل الوثنية) كما نجد عند الهنود ثالوثا مؤلفا من برهما وفشنو وسيفا ، نجد عند البوذيين ثالوثا فإنهم يقولون إن (بوذه) إله ثلاثة أقانيم كما تقول الهنود .

وقال مستر دوان فى كتابه (خرافات التوراة) وكان قسيسو هيكل منفيس بمصر يعبرون عن الثالوث المقدس فى تعليمهم المبتدئين بقولهم إن الأول خلق الثانى وهما خلقا الثالث وبذلك تم الثالوث المقدس ، وسأل توليسو ملك مصر الكاهن تنيشوكى ـ هل كان قبله أحد أعظم منه ؟ وهل يكون بعده أحد أعظم منه؟ فأجابه الكاهن : نعم يوجد من هو أعظم وهو الله قبل كل شىء ثم الكلمة ومعهما روح القدس ، ولهذه الثلاثة طبيعة واحدة وهم واحد بالذات وعنهم صدرت القوة الأبدية ، فاذهب يا فانى يا صاحب الحياة القصيرة ، ثم قال المؤلف لا ريب أن تسميه الأقنوم

الثانى من الثالوث المقدس (كلمة) هو من أصل وثنى مصرى دخل فى غيره من الديانات المسيحية و (أبولو) المدفون فى (دهلى) يدعى الكلمة، وفى علم اللاهوت الإسكندرى الذى كان يعلمه (بلاتو) قبل المسيح بسنين عدة (الكلمة هى الإله الثانى) ويدعى أيضا ابن الله البكر ، وقال هيجين فى كتابه (الانكلوسكسون) كان الفرس يسمون (متروسا) الكلمة والوسيط ومخلص الفرس ، وقال دوان : كان الفرس يعبدون إلها مثلث الأقانيم مثل الهنود ويسمون الأقانيم (أوزمرد . مترات . أهرمن) . فأوزمرد الخلاق ومترات ابن الله المخلص والوسيط . وأهرمن الملك ، والمشهور عن مجوس الفرس التثنية دون التثليث فكانوا يقولون بإله هو مصدر النور والخير وإله هو مصدر الظلمة والشر .

وقال صاحب كتاب (ترقى الأفكار الدينية) إن اليونانيين كانوا يقولون إن الإله مثلث الأقانيم وكان قساوستهم إذا شرعوا فى تقديم الذبائح يرشون المذبح بالماء المقدس ثلاث مرات (إشارة إلى الثالوث) ويرشون المجتمعين حول المذبح ثلاث مرات ، ويأخذون البخور من المبخرة بثلاث أصابع ، ويعتقدون أن الحكماء قالوا إنه يجب أن تكون جميع الأشياء المقدسة مثلثة ولهم اعتناء بهذا العدد فى جميع شعائرهم الدينية .

وقد اقتبست الكنيسة بعد دخول نصرانية قسطنطين فيهم ، هذه الشعائر كلها ونسخت بها شريعة المسيح التى هى التوراة ، وظلموا المسيح بنسبتها إليه .

والخلاصة — إن الديانة النصرانية بنيت على أساس التوحيد الخالص فحولها الكهنة إلى ديانة وثنية تقول بتثليث غير معقول أخذوه من تثليث اليونان والرومان المقتبس من تثليث المصريين والبراهمة اقتباسا مشوها ، ونسخوا شريعة سماوية برمتها واستبدلوا بها بدعا وتقاليد غريبة عنها ، فقد كانت ديانة زهد وتواضع فجعلوها ديانة طمع وجشع وكبرياء وترف وأثرة واستعباد للبشر ، ديانة نسبوها إلى المسيح

وليس عندهم نص فيها يدل على التثليث ، بل عندهم نصوص من كلامه تدل على التوحيد و إبطال التثليث ، ولو لم يكن عندهم من النصوص فى هذه العقيدة إلا مارواه يوحنا فى إنجيله لـكفى من قوله عليه السلام (وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته) فهذا نص واضح فى أنه هو الإله وحده وأنه هو رسوله .

وقال مرقس فى الفصل الثانى عشر من إنجيله : إن أحد الـكتبة سأل يسوع عن أول الوصايا فأجابه ، أول الوصايا : اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد الخ ، فقال له الـكاتب (جيدا) يا معلم بالحق قلت لأنه واحد وليس آخر سواه ، فلما رأى يسوع أنه أجاب بعقل قال له (لست بعيدا عن ملـكوت السموات) ومن هذا النص يعلم أن التوحيد الخالص هو العقيدة المعقولة التى تؤخذ على ظاهرها بلا تأويل(١) .

(لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائـكة المقربون) أى لن يأنف المسيح ولن يترفع عن أن يكون عبدا لله لعلمه بعظمة الله وما يجب له من العبودية والشكر ، ولا الملائـكة المقربون يستنكف أحد منهم أن يكون عبدا له .

ومن هذه الآية يفهم أن الملائكة أعظم من المسيح خلقا وأفعالا ، ومنهم روح القدس الذى بنفخة منه خلق المسيح ، ومن ثم استدل بها كثير من العلماء على تفضيل الملائكة المقربين على الأنبياء . إذ السياق فى رد غلوّ النصارى فى المسيح باتخاذه إلهـا ورفعه عن مقام العبودية فالرد عليهم يقتضى الترقى من الرفيع إلى الأرفع كما تقول إن فلانا التقى لا يستنكف من تقبيل يد الوزير ولا الأمير ، فإذا بدأت بذكر الأمير لم يعد لذكر الوزير فائدة ، بل يكون لغوا لأنه يندمج فى الأول بالطريق الأولى .

وقال آخرون إن الآية لاتدل على ذلك لأنها فى معرِض تفضيل هؤلاء الملائـكة فى عظم الخلق والقدرة على الأعمال العظيمة وهوالمناسب للرد على من استكبروا خلق

(١) كل ما تقدم فى هذا الفصل مأخوذ من تفسير المنار .

المسيح من غير أب وصدور بعض الآيات عنه فجعلوه إلها ، مع أن الملائكة خلقوا من غير أب ولا أم و يعملون ماهو أعظم من آيات المسيح فهم بهذا أفضل منه وأعظم.

وأيا كان فالتفاضل فى هذا من الرجم بالغيب ، إذ لا يعلم إلا بنص مع أنه ليس له فائدة فى إيمان ولا عمل .

(ومن يستنكف عن عبادته و يستكبر فسيحشرهم إليه جميعا) أى ومن يترفع عن عبادته تعالى أنفة وكبرا فيرى أنه لا يليق به ذلك فسيجزيه أشد الجزاء ، إذ يحشر الناس جميعا للجزاء المستنكفين منهم والمستكبرين مع غيرهم فى صعيد واحد كما ورد فى الحديث ثم يحاسبهم و يجزيهم على أعمالهم :

(فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم و يزيدهم من فضله) أى فهؤلاء الذين عملوا الصالحات سيعطيهم أجورهم وافية كاملة على إيمانهم وعملهم الصالح على حسب سنة الله فى ترتيب الجزاء على مقدار تأثير الإيمان والعمل الصالح فى النفس وتزكيتها وطهارتها من أدران الشرور والآثام .

(وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما) أى فهؤلاء يعذبون عذابا مؤلما يستحقونه على حسب سنن الله أيضا ، لكن لا يزيدهم على مايستحقون شيئا ، لأن رحمته سبقت غضبه ، فهو يجازى المحسن على إحسانه بالعدل والفضل و يجازى المسىء على إساءته بالعدل .

(ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا) أى لا يجدون لهم من غير الله تعالى وليا يلى أمورهم و يدبر مصالحهم ، ولا نصيرا ينصرهم من بأسه و يرفع عنهم العذاب إذ لاعاصم اليوم من أمر الله (يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (١٧٥)

المعنى الجملى

بعد أن حاجّ أهل الزيغ والضلال جميعا ، فحاج النصارى فى الآية السابقة ، وحاج اليهود فى الآية التى قبلها ، وحاج المنافقين والمشركين أثناء السورة وفى سور كثيرة غيرها وأقام الحجة عليهم جميعاً وظهرت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ظهور الشمس فى رائعة النهار ـ نادى الناس كافة ودعاهم إلى اتباع برهانه والاهتداء بنوره .

الإيضاح

(يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم) أى قد جاءكم من قبل ربكم برهان جلىّ يبين لكم حقيقة الإيمان بالله وجميع ما أنتم فى حاجة إليه من أمر دينكم مؤيد بالدلائل والبينات ، ألا وهو النبى الأمى الذى هو برهان على حقية ما جاء به بسيرته العملية ودعوته التشريعية ، فإن أميّا لم يتعلم فى مدرسة ولم يعن فى طفولته بما كان يسمى عند قومه علما كالشعر والنسب وأيام العرب بل ترك ولدان المشركين وشأنهم ولم يحضر سُمَّار قومه ولا معاهد لهوهم ولم يحظ من التربية المنزلية والتأديب الاجتماعى فى أول نشأته ما يؤهله للمنصب الذى تصدي له فى كهولته ، وهو تربية الأمم تربية دينية اجتماعية سياسية حربية ، وهو مع هذا قد قام به على أتم وجه وأكمل طريق ـ لهو برهان على عناية الله به وتأييده إياه بوحيه وهديه .

(وأنزلنا إليكم نورا مبينا) أى وأنزلنا إليكم بما أوحينا إليه كتابا هو كالنور فى الهداية للناس مبينا لكل ما أنزل لبيانه من توحيد الله وربوبيته وهو المقصد

الأعلى الذى بعث به جميع الرسل وكان كل منهم يدعو أمته إليه ويستجيب له الناس بقدر استعدادهم لفهم حقيقته ثم لا يلبثون أن يشوهوه بالشرك وضروب الوثنية التى تدنس النفوس وتهبط بها من أوج العزة والكرامة إلى المهانة والذلة بالخضوع لبعض المخلوقات من جنسهم أو من أجناس أخرى .

ولما تغلغلت الوثنية فى جميع الأديان المعروفة وأفسدتها على أهلها أنزل الله لهداية البشر هذا النور المبين وهو القرآن ، فبين لمن يفهم لغته حقيقة التوحيد بالدلائل والبراهين الكونية والعقلية مع ضرب الأمثال وذكر شىء من القصص لكشف ما ران على هذه العقيدة من شبهات المضلين وأوهام الضالين التى مزجتها بالشرك .

هذا البيان الذى جاء به القرآن لتقرير التوحيد واجتثاث جذور الوثنية لم يكن معهودا مثله من الحكماء ولا من الأنبياء ، فمن ثم وجب أن يكون من رب العالمين « وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » .

والخلاصة — أن محمدا النبى الأمى صلى الله عليه وسلم كان برهانا على حقية دينه وكتابه القرآن أنزل من العلم الإلهى ولم يكن لعلمه الكسبى أن يأتى بمثله ، وأنزل نورا مبينا لجميع الناس ما هم فى حاجة إليه فى معاشهم ومعادهم ليتدبروا آياته ويسعدوا به فى حياتهم الدنيا وينالوا به الخير فى العقبى .

(فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل) الاعتصام التمسك بما يعصم ويحفظ أى فأما الذين يعتصمون بهذا القرآن فيدخلهم الله فى رحمة خاصة منه لايدخل فيها سواهم ، وفضل خاص لايتفضل به على غيرهم ، ولكنه يختص من يشاء بما شاء من أنواعهما ، وقال ابن عباس : الرحمة الجنة ، والفضل ما يتفضل به عليهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

(ويهديهم إليه صراطا مستقيما) أى ويهديهم طريقا قويما وهداية خاصة تبلغهم السعادة فى الدنيا بالعزة والكرامة وفى الآخرة بالجنة والرضوان ، وهذا

الصراط المستقيم لايهدى إليه إلا الاعتصام بالقرآن الكريم واتباع سنة سيد المرسلين، والمراد أنه يوفقهم ويثبتهم على تلك الهداية إلى الصراط المستقيم، وسكت عن القسم الآخر المقابل لهؤلاء المؤمنين المعتصمين للايذان بأنه بعد ظهور البرهان لاينبغى أن يوجد ، وإن وجد لايؤبه له ولا يهتم بشأنه .

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ، إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ، وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ، يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦) .

المعنى الجملى

بعد أن تكلم فى أول السورة فى أحكام الأموال ختم آخرها بذلك ليكون الآخر مشاكلا للأول ، والوسط مشتمل على المناظرة مع فرق المخالفين للدين :

روى أحمد والشيخان وأصحاب السنن عن جابر بن عبد الله قال : « دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مريض لاأعقل فتوضأ ثم صب علىّ فعقلت ، فقلت إنه لايرثنى إلا كلالة فكيف الميراث ؟ فنزلت آية الميراث (يريد هذه الآية) » .

وروى ابن عبدالرزاق وابن جرير عن ابن سيرين قال « نزلت (يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة) والنبى صلى الله عليه وسلم فى مسير له و إلى جنبه حذيفة بن اليمان فبلغها النبى صلى الله عليه وسلم حذيفة و بلغها حذيفة عمر بن الخطاب وهو يسير خلفه ، فلما استخلف عمر سأل عنها حذيفة ورجا أن يكون عنده تفسيرها ، فقال له حذيفة: والله إنك لعاجز إن ظننت أن إمارتك تحملنى على أن أحدثك مالم أحدثك

يومئذ . فقال عمر لم أرد هذا رحمك الله » قال الخطابى أنزل الله فى الكلالة آيتين إحداهما فى الشتاء وهى التى فى أول سورة النساء وفيها إجمال و إبهام لا يكاد يتبين المعنى من ظاهرها ، ثم أنزل الآية الأخرى فى الصيف وهى التى فى آخرها وفيها من زيادة البيان ما ليس فى آية الشتاء ، فأحال السائل عليها ليتبين المراد بالكلالة المذكورة فيها اه .

الإيضاح

(يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة) الكلالة : ماعدا الوالد والولد من القرابة وقيل الإخوة من الأم ، قال فى لسان العرب ـ وهو المستعمل ـ والمعنى يطلبون منك أيها النبى الفتيا فيمن يورث كلالة كجابر بن عبد الله الذى ليس له والد ولا ولد وله أخوات من العصبة لم يفرض لهم شىء فى التركة من قبل، و إنما فرض للإخوة من الأم السدس للواحد منهم والثلث لما زاد على الواحد وهم شركاء فيه مهما كثروا لأنه ميراث أمهم ليس لها سواه ـ فقل لهم جوابا عما سألتم عنه .

(إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك) هلك مات ـ أى إن هلك امرؤ غير ذى ولد والحال أن له أختا من أبويه معا أو من أبيه فقط فلها نصف ما ترك .

(وهو يرثها إن لم يكن لها ولد) أى والأخ يرث أخته إذا ماتت إن لم يكن لها ولد ذكر ولا أنثى ولا والد يحجبه عن إرثها، و إنما أطلق الإرث ولم يبين النصيب لأن الأخ ليس صاحب فرض معين بحيث لا يزيد ولا ينقص بل هو عصبة يحوز كل التركة عند عدم وجود أحد من أصحاب الفروض، وعند وجود أحد منهم يرث هو معه كلالة جميع ما بقى .

(فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك) فإن كان من يرث بالأخوة أختين فلهما الثلثان مما ترك أخوها كلالة ، وكذا إن كن أكثر من ثنتين كأخوات جابر

فقد كن سبعا أو تسعا والباقى لمن يوجد من العصبة إن لم يكن هناك أحد من أصحاب الفروض كالزوجة وإلا أخذ كل ذى فرض فرضه أوّلا .

(وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين) أى وإن كان من يرثون بالأخوّة كلالة ذكورا وإناثا فللذكر مثل حظ الأنثيين كما هى القاعدة فى كل صنف اجتمع منه أفراد فى درجة واحدة إلا أولاد الأم فإنهم شركاء فى سدس أمهم لحلولهم محلها ولولا ذلك لم يرثوا إذ هم ليسوا من عصبة الميت .

(يبين الله لكم أن تضلوا) أى يبين الله لكم أمور دينكم التى من أولاها تفصيل هذه الأحكام كراهة أن تضلوا أى لتتقوا بمعرفتها الضلال فى قسمة التركات وغيرها .

(والله بكل شىء عليم) فهو لم يشرع لكم من الأحكام إلا ما علم أن فيه الخير لكم وصلاح أنفسكم وذلك شأنه فى جميع أفعاله وأحكامه ، فكلها موافقة للحكمة دالة على واسع العلم وعظيم الرحمة .